

الحسبة وأثرها على الحياة الاقتصادية

في مصر المملوكية

للدكتور أحمد السيد دراج

أفاض المقرئ في كتابه «إغاثة الأمة بكشف الغمة» في شرح أسباب الضائقة الاقتصادية الكبرى التي ألمت بمصر في أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع الهجري . فقد شهدت مصر في الفترة الممتدة من سنة ٧٩٦ حتى سنة ٨٠٩ هـ مجاعة متقطعة صاحبها انتشار الوباء ، الذي مات فيه ألوف مؤلفة من المصريين في السنوات الأخيرة منها ؛ أي منذ سنة ٨٠٦ هـ .

وفضلاً عن هذا السبب الذي أشار إليه المقرئ ، والذي كان سبب كتابته هذه الرسالة القصيرة ، فإن هذه الضائقة الاقتصادية ترجع — في رأيه — إلى ثلاثة أسباب لارابع لها ، وهي :

السبب الأول — وهو أصل هذا الفساد ، ولاية الخطط السلطانية والمناصب الدينية بالرشوة كالوزارة والقضاء ونيابة الأقاليم وولاية الحسبة وسائر الأعمال ، بحيث لا يمكن التوصل إلى شيء منها إلا بالمال الجزيل .

السبب الثاني — غلاء إيجار الأطيان الزراعية .

السبب الثالث — رواج الفلوس النحاسية^(١) .

(١) المقرئ : إغاثة الأمة بكشف الغمة . تحقيق الدكتور محمد مصطفى زياده ، والدكتور جمال الدين الشيال ، القاهرة . ١٩٤٠ ، ص ٤١ وما يليها (فصل في بيان الأسباب التي نشأت عنها هذه المحن ...) .

— نبتت فكرة كتابة هذا البحث عن « الحسبة » بعد قراءة مقال للأستاذ الدكتور محمد مصطفى زياده عنوانه : « دراسات في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي » ؛ وهذا المقال منشور في الكتاب الذي أصدره المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، والذي يحتوى على الكلمات والدراسات التي أقيمت في الحلقة الدراسية الأولى « للتاريخ والآثار » التي أقيمت تحت إشراف المجلس في المدة من ٤ — ٩ فبراير سنة ١٩٦١ . فهذه « الدراسات » تدور حول كتاب « إغاثة الأمة » للمقرئ ، واني لأرجو أن

والمقریزی ، في شرحه للسبب الأول ، لم ينتقل من التعميم إلى التفصيل ، وإنما اكتفى بتبرير وجهة نظره العامة وإبراز النتائج العامة التي تترتب على تولية الوظائف بالرشوة . ففي هذا الصدد يقول :

(فتخطى لأجل ذلك كل جاهل ومفسد وظالم وباغ إلى ما لم يكن يؤمله من الأعمال الجليلة والولايات العظيمة ويحتاج إلى أن يقرر على حواشيه وأعوانه ضرائب ، ويتعجل منهم أموالاً ، فيمدونهم أيضاً أيديهم إلى أموال الرعايا ، ويشربون لأخذها بحيث لا يعفون ولا يكفون ، ثم ينساق البائس في جمع الأموال التي استدانها إذا أتمته استدعاءات من الأمراء وحواشي السلطان ولا يشعر مع ذلك إلا وغيره قد تقلد ذلك العمل بمال التزم به ، وقد بقيت عليه جملة من الديون ، فيحاط على ما يوجد له من أثاث وحيوان وغيره ويشخص في أنحس حال ، وقد أحيط كما ذكرنا بماله ، ويعاقب العقوبات المؤلمة ، فلا يجد بداً من الالتزام بمال آخر ، ليقلد العمل الأول أو غيره من الأعمال .^(١))

ونحن في دراستنا لوظيفة الحسبة نحاول أن نضع رأى المقریزی موضع التطبيق ، لا لنثبت صحته ، وإنما لتوضح لنا الآثار التي ترتبت على تولي الوظائف العامة بالسعي والبذل ، ونتائج ذلك على الحياة الاقتصادية في مصر المملوكية منذ مطلع القرن التاسع الهجري .

فوظيفة الحسبة يأتي ترتيبها في المرتبة الخامسة بين الوظائف الدينية^(٢) ، إلا أنها تعتبر أخطر الوظائف الديوانية والوظائف الدينية في مصر المملوكية

= أكون قد أسهمت بهذا البحث عن « الحسبة » في إبراز قيمة هذا الكتيب في ميدان الدراسات الاقتصادية الخاصة بمصر الإسلامية ، وفي إيضاح بعض جوانب الحياة الاقتصادية في هذه الفترة من تاريخ مصر .

— هذا ومن المفيد أن نذكر أن الأستاذ WIET ترجم إلى اللغة الفرنسية كتاب « اغانة الأمة بكشف الغمة » وصدرت الترجمة بعنوان :

Le traité des famines de Maqrizi.

Journal of the Economic and

Social history of the Orient, vol. V part I, Febr. 1962.

ونشرت في :

(١) اغانة الأمة ، ص ٤٣ — ٤٥

(٢) صبح الأعشى ، الجزء الرابع ، ص ٣٧

نظراً لارتباطها أكثر من غيرها بحياة الناس اليومية ؛ عامتهم وتجارهم وصناعهم والمتسببة لقوت يومها . ومن ثم فإن توليها — على النحو الذى أشار إليه المقرئى — كانت له آثار بعيدة المدى على حياة البلاد الاقتصادية .

فالحسبة عند فقهاء المسلمين هى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ومن هذا المفهوم العام يباشر المحتسب اختصاصاته وهى المحافظة على الآداب العامة والإشراف على الأسواق ودور الضرب ، وعلى أصحاب الحرف والصنائع^(١) . غير أننا سنرى فى هذه الدراسة كيف أصبحت الحسبة معولاً هداماً فى يد المحتسبين الذين تولوها بالسعى والبذل .

ويتضح مدى هذا الدور المخرب لوظيفة الحسبة — فى حياة البلاد الاقتصادية — إذا ما عرفنا مدى اتساع سلطة المحتسب . فمتولى حسبة القاهرة كان له نواب بالقاهرة والوجه البحرى إلى قطيا وبرقه ؛ خلا نجر الاسكندرية فإن متولى الحسبة بها كان السلطان هو الذى يصدر قرار تعيينه ، ثم أضيفت فيما بعد إلى نائبها . وأما متولى حسبة مصر (الفسطاط) فله الأمر والاستتابة بقلعة الجبل والصلبية إلى قناطر السباع والعراقيين والوجه القبلى بكمالها ؛ وربما أضيفت حسبة مصر إلى حسبة القاهرة^(٢) .

* * *

والحسبة فسد أمرها منذ أمد طويل سابق على زمن المقرئى . فلما وردى ، المتوفى سنة ٤٥٠ هـ — ١٠٥٨ م ، يتحدث عن الحسبة فى هذه الكلمات .

(١) عن الحسبة انظر :

— الشيزرى : نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ، نشر الدكتور السيد الباز العرنى ، ص ٦

— العرنى : كتاب عن الحسبة فى بيزنطة ، فصله من مجلة كلية الآداب ، المجلد التاسع عشر ، الجزء الأول ، مايو ١٩٥٧ ، ص ١٢٤

— حسن الباشا : الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية ، الجزء الثالث ، ص ١٠٢٧ وما يليها .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ، جزء ٤ ، ص ٣٧ ، جزء ١١ ص ٤١٤

— الخالدى : المقصد الرفيع المنشأ الهادى لديوان الانشا ، مخطوطة المكتبة الأهلية بباريس ، القسم العربى ، رقم ٤٤٣٩ ، ورقة ١١٣٢ .

(والحسبة من قواعد الأمور الدينية ، وقد كان أئمة الصدر الأول يباشرونها بأنفسهم لعموم صلاحها وجزيل ثوابها ، ولكن لما أعرض عنها السلطان وندب لها من هان ، وصارت عرضة للتكسب وقبول الرشا ، لأن أمرها وهان على الناس نظرها ، وليس إذا وقع الإخلال بقاعدة سقط حكمها. (١) وإذا ما إنتقلنا إلى مصر — وعلى وجه التخصيص — مصر المملوكية فإننا نجد المصادر تمدنا بالشئ الكثير عن الحسبة وعن الدور الهدّام الذى كان يقوم به المحتسب في حياة البلاد الاقتصادية . وفي هذا المعنى يعبر أحد شيوخ القرن الثامن الهجرى — الرابع عشر الميلادى عما آل إليه أمر الحسبة في هذه الكلمات :

(وأما أمر الحسبة فاعلموا — رحمكم الله — أن أمرها قد فسد ، واستحكم فسادها ، وكثر الطمع في أموال الناس بسببها ، وقد بقيت سيئة فلا يحل للسلطان أن يوليها أحداً ولا حاجة للناس بها. (٢))

ولكن على الرغم من وضوح الدلالة — من هذه النصوص السابقة — على فساد أمر الحسبة ، إلا أن هذا الفساد كان يمكن تداركه لولا ما انتهى إليه أمرها من انحلال تام في أوائل القرن التاسع الهجرى . وذلك أن ارتباط وظيفة الحسبة بالحياة الاقتصادية جعلها أكثر الوظائف تأثراً بحالة التدهور الاقتصادى الذى بدأت مصر تعاني من آثاره منذ الخمسينات من القرن الثامن الهجرى ، وما حدث بعد ذلك من مضاعفات عديدة في بداية القرن التالى دفعت بالبلاد ، وظلت تدفعها طوال ذلك القرن ، إلى حالة الانهيار الاقتصادى التام .

وليس هناك من دليل أبلغ في وصف حالة البلاد الإقتصادية من أن أضع أمام القارئ قائمة بما تعرضت له البلاد من قحط وجذب ومجاعات وأوبئة خلال هذه الفترة الزمنية التى تبلغ قرناً ونصف . ولا يخفى علينا جميعاً

(١) الأحكام السلطانية ، طبعة القاهرة ١٢٩٨ هـ ، ص ٢٤٥
(٢) ابن عز (ابراهيم بن على الطرسوسى) : تحفة الترك فى ما يجب أن يعمل فى الملك ، مخطوطة بالمكتبة الأهلية ببائيس ، القسم العربى ، رقم ٢٤٤٥ ، ورقة ٣٧

أن النيل واهب الحياة في مصر ، وأن جميع مظاهر النشاط البشرى كانت تتأثر بمدى ما يجود به الله علينا من مياه الفيضان . فيلى القارىء هذه القائمة :

— ١٣٣٨/٧٣٩ — ١٣٣٩ : فيضان منخفض ؛ جذب وغلاء .

— ١٣٣٩/٧٤٠ — ١٣٤٠ : جذب وغلاء شديد .

— ٧٤٧ — ١٣٤٦/٧٤٩ — ١٣٤٨ : الوباء الكبير (الوباء الأسود) .

— ١٣٥٠/٧٥١ — : فيضان منخفض ؛ جذب وغلاء شديد .

— ١٣٥٣/٧٥٤ — : وباء .

— ١٣٦٣/٧٦٤ — : فيضان منخفض ؛ جذب وغلاء شديد .

— ٧٧٥ — ١٣٧٣/٧٧٧ — ١٣٧٥ : فيضان منخفض ؛ مجاعة ؛ وباء^(١) .

— ١٣٨١/٧٨٣ — : وباء .

— ٧٩٦ — ١٣٩٣/٨٠١ — ١٣٩٨ : فيضان منخفض ؛ جذب وغلاء شديد^(٢) .

— ٨٠٦ — ١٤٠٣/٨٠٩ — ١٤٠٧^(٣) : فيضان منخفض ؛ مجاعة ؛ وباء وفناء كبير .

— ٨١٨ — ١٤١٥/٨١٩ — ١٤١٦ : وباء .

— ٨٢٢ — ١٤١٩/٨٢٣ — ١٤٢٠ : فيضان منخفض ؛ جذب وغلاء شديد ؛

وباء .

— ١٤٢٧/٨٣٠ — : فيضان منخفض ؛ جذب وغلاء شديد .

— ١٤٢٩/٨٣٢ — : فيضان منخفض ؛ جذب وغلاء شديد .

— ١٤٣٠/٨٣٣ — : وباء .

(١) اغاثة الأمة : ص ٤١ — ٤٣ (لم يرد ذكر هذا الفيضان المنخفض وما ترتب عليه في هذه القائمة التى ننقلها عن فيت WIET — انظر فيما بعد) .

(٢) اغاثة الأمة : ص ٤٠ — ٤١ (أعقب هذه المجاعة وباء) .

(٣) اغاثة الأمة ، ص ٤٢ — ٤٣ (تحدث المقرئى عن هذه المجاعة وما صحبها من وباء حتى أوائل سنة ٨٠٨ هـ ، وهى الفترة التى كتب فيها كتابه المذكور — تحدث المقرئى ، قبل حديثه عما حدث فى سنة ٨٠٨ هـ ، عما حدث من غلاء شديد فى عهد السلطان كتبغا سنة ٦٩٦ هـ ، وفى عهد الناصر محمد سنة ٧٣٦ هـ ، وفى عهد الأشرف شعبان سنة ٧٧٦ هـ — انظر الكتاب المذكور ، ص ٣٢ — ٣٣ ، ٣٩ — ٤٠) .

- ٨٤١ — ١٤٣٧/٨٤٢ — ١٤٣٨ : وباء .
— ١٤٤٥/٨٤٩ : وباء .
— ١٤٤٩/٨٥٣ : فيضان منخفض ؛ جذب وغلاء شديد .
— ١٤٥٢/٨٥٦ : فيضان منخفض ؛ جذب وغلاء شديد .
— ١٤٥٩/٨٦٣ : وباء .
— ١٤٦٨-١٤٦٩ : فيضان منخفض ؛ جذب وغلاء شديد .
— ١٤٧٦/٨٨١ — ١٤٧٧ : وباء .
— ١٤٨٧/٨٩٢ : جذب وغلاء شديد^(١) .

ويتضح من هذه القائمة أن انخفاض النيل ، وما ترتب عليه من جذب وغلاء شديد أحياناً ، ومجاعة ووباء أحياناً أخرى ، قد تكرر حدوثه في القرن التاسع أكثر من القرن الثامن . كما يتضح منها أن هذه الظاهرة قد تكرر حدوثها في فترات متقاربة خلال النصف الأول من القرن التاسع ، وترتب عليها أضرار كثيرة حاقت بالبلاد . ففضلاً عن الغلاء الشديد والمجاعة فقد تعرضت البلاد في هذه الفترة للوباء ست مرات .

وبالإضافة إلى هذه الكوارث الطبيعية ، فقد حلت بمصر والشام في مطلع القرن التاسع محن وأحداث أخرى دفعت بهما إلى حالة التدهور الإقتصادي . فبلاد الشام تعرضت لغزو تيمورلنك وما صحبه من آثار مخربة ، وتبع ذلك تهديد مصر بالغزو . وإقتضى الأمر الإستعداد والتأهب لملاقاة تيمورلنك ، فلجأت السلطات إلى وسائل غير عادية لجمع الأموال من مختلف فئات الشعب . غير أن هذه الوسائل اقترنت بالمبالغة والشدة والعنف ، بل اتسمت بطابع السلب والنهب ، حتى أن المعاصرين يقارنون ما حل بالمصريين-في هذا الصدد - بما حل بأهل الشام على يد تيمورلنك^(٢) .

(١) هذه القائمة نقلا عن :

WIET et HAUTECOEUR : Les Mosquées du Caire, I, p. 82.

(٢) المقرري : السلوك ، المخطوطة رقم ١٧٢٨ بال مكتبة الاهلية بباريس ، ورقة ٢٢ ب ، ٢٧ ب — ٢٨ ب .
— العيني : عقد الجمان ، المخطوطة رقم ١٥٤٤ بال مكتبة الاهلية بباريس ، ورقة ١٤٣ .

وكما يحدث عادةً في بداية عهد كل سلطان من أبناء السلاطين السابقين ، فقد شهد عهد الناصر فرج منذ بدايته حركات التآمر والعصيان من جانب كبار الأمراء ، استنكاراً منهم . لمبدأ توريث عرش السلطنة . كما أغراهم صغرسنه ، وقت أن تولى السلطنة ، على الإصرار على التخلص منه ؛ هذا فضلاً عن أن ما عُرف به هذا السلطان من تعطّش لسفك الدماء جعل عهده كله يمتلئ بالإضطرابات الدموية . ويكفى للتدليل على الطابع الدموي لهذه الفترة ، ما يذكره المؤرخون من أنه في سنة واحدة قتل ستمائة وعشرين أميراً من هؤلاء الأمراء المعارضين له^(١) ، وأنه خرج على رأس ثمان تجريدات عسكرية إلى الشام لقمع عصيان الأمراء الخارجين عليه ، وأن كل تجريدة تكلفت ما يزيد عن مليون دينار جمعت من أفراد الشعب عن طريق المصادرات . وموجز القول ، فإن الناصر فرج — كما يصفه لنا المقرئى — كان أشأم ملوك الإسلام ، وأنه خرب بسوء تديره جميع أراضي مصر والشام^(٢) .

ويطول بنا القول إذا ما تتبعنا أسباب هذه الأزمة الاقتصادية الحادة ومظاهرها المختلفة . ويكفيها — في هذا الصدد — أن نذكر أن هذه المضاعفات العديدة التي صاحبت هذه الكوارث الطبيعية التي تعرضت لها البلاد في أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع قد جعلت من المتعذر التغلب على هذه الأزمة الاقتصادية الحادة ، فظلت تخيم على البلاد طوال بقية عصر المماليك .

والمتبع لتطور وظيفة الحسبة منذ بداية القرن التاسع يلاحظ أن انهيارها جاء نتيجة لثلاثة أسباب مباشرة ، وهى :

= ابن حجر : انباء الفهر ، المخطوطة رقم ١٦٠١ بال مكتبة الأهلية بباريس ، ورقة ١٧١ ب ، ١٧٣ ب .
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، طبعة كاليفورنيا ، الجزء السادس ، ص ٤٧ ، ٦٩ — ٧٢

WIET et HAUTECOEUR : Op. cit., I, p. 81.

WIET : L'Egypte arabe, pp. 521-524.

(٢) — السلوك ، المخطوطة السابقة ، ورقة ١٠٢ ، ب .

— النجوم الزاهرة ، الجزء السادس ، ص ٢٥٧

WIET : L'Egypte arabe, pp. 534-540.

١ — تدخل كبار الأمراء ، أصحاب السلطة والنفوذ في الدولة ، في تولية أعوانهم في هذه الوظيفة خدمة لمصالحهم ؛ ومن المعروف أن السلطان والأمراء كانوا يشتغلون بالمتجر .

٢ — أن الأمر لم يقتصر على تولى هذه الوظيفة بالرشوة وبالبراطيل^(١) ، وإنما استقر الحال على توليها — حسب مصطلح العصر — عن طريق « البذل » ؛ أى شراء الوظيفة بمبلغ من المال يدفع مقدماً ، مع تعهد من يحصل عليها بأن يدفع للسلطان مبلغاً من المال مشاهرة . وهذا أدى إلى كثرة الطامعين في هذه الوظيفة ، وإلى المزايدة فيما بينهم . وبالتالي لم يعد الأمر بالنسبة للمحتسب مجرد تناول رشوة مقنّعة أو خفية ، وإنما اتخذ صورة فرض مقرّرات شهرية على الباعة والتجار وأصحاب الحرف والصنائع .

٣ — لم يعد تولى هذه الوظيفة الدينية قاصراً على الفقهاء والمتعممين ، وإنما تعداها — منذ عهد السلطان المؤيد شيخ — إلى الأمراء أصحاب السيوف ، ثم اقتصرت أخيراً عليهم . وعلى أيدي هؤلاء الأمراء انتهى أمر الحسبة .

* * *

فأمّا السبب الأول ، من هذه الأسباب ، فمن السير تتبعه في مصادر مؤرخي النصف الأول من القرن التاسع ؛ وعلى رأس هؤلاء المقريزي ، والعيني ، وابن حجر . فالثلاثة كانت تسيطر على قلوبهم عوامل الحسد والغيرة التي تطورت إلى عداوة واضحة صريح ، وذلك بسبب التنافس على تولى الوظائف الدينية الكبرى في الدولة المملوكية . فالمقريزي والعيني فرّق بينهما التنافس على تولى وظيفة الحسبة ، وأدى ذلك إلى اعتزال المقريزي لهذه الوظيفة وللحياة العامة كلها . والعيني وابن حجر تنافسا في طاب الحظوة لدى السلاطين ، وفي ميدان التأليف^(٢) .

(١) البراطيل هي الأموال التي تؤخذ من ولاية البلاد ومحتسبها وقضايتها وعمالها ، وكان أول من تناولها — في الدولة المملوكية — الأمير شيخون ، ثم أفحش في تناولها الظاهر برقوق — انظر : الخطط ، طبعة بولاق ، الجزء الأول ، ص ١١١ ؛ طبعة WIET ، الجزء الثاني ، ص ١١٠ .
(٢) انظر : الدكتور زياده ، المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر الميلادي ، ص ١٩ — ٢١

ففى ٧ ذى الحجة سنة ٨٠١ استقر العينى فى وظيفة محتسب القاهرة والوجه البحرى بدلاً من المقرزى . وبعالتى المقرزى على ذلك بقوله أنه بعد رجوع العينى من بلاده تردد إلى الأمراء ، فسعى له بعضهم ، وهو الأمير جكم ، فلم تتم معه سوى بقية الشهر (١) .

وفى ٢ محرم سنة ٨٠٢ صُرف العينى من الحسبة ، واستقر فيها جمال الدين محمد بن عمر الطنبدى ، وكان القائم فى ذلك دويدار الأمير ايتمش ، القائم بأمر الناصر فرج (٢) .

وفى ١٤ ربيع الآخر ، من نفس العام ، أعيد العينى إلى وظيفة الحسبة (٣) . وفى ٨ جمادى الأول (٤) ، أو فى ١٦ منه ، أعيد المقرزى إلى وظيفة الحسبة ، وصُرف منها العينى . ولترك العينى يروى لنا أسباب صرفه منها ؛ ففى هذا الصدد يقول ، « فى يوم الخميس ، ١٦ منه (جمادى الأول) عزل صاحب التاريخ نفسه عن حسبة القاهرة ، وذلك أن سودون الدوادار ، لما استقر فى الدوادارية احتاط على موجود ايتمش الذى كان قائماً بأمر الناصر فرج ثم قُتل ؛ ومن جملة ما وُجد له فى شؤنه ستة آلاف أردب قمحاً وألفى أردب حمصاً ، وألف أردب فول . وكان أردب القمح إذ ذاك يساوى خمسة وثلاثين درهماً ، فطلبنى المذكور وقال لى : بع هذا القمح الأردب بستين درهماً . فقلت له : العادة فى هذا أن يُباع بقطع السعر من أرباب الحيرة . فلما سمع منى هذا الكلام اختبط خبط اللثام ، وركبه ظلام

-
- (١) — السلوك ، ورقة ١٠ ب .
— عقد الجمان ، ورقة ٢٢ ب .
— أنباء الفمر ، ورقة ١٥٠ .
(٢) — السلوك ، ورقة ١١ ب .
— عقد الجمان ، ورقة ٢٥ ب .
— أنباء الفمر ، ورقة ١٥٠ .
(٣) — السلوك ، ورقة ١٥ ب .
— عقد الجمان ، ورقة ٢٨ .
— أنباء الفمر ، ورقة ١٥٠ .
(٤) — السلوك ، ورقة ١١٦ .
— أنباء الفمر ، ورقة ١٦١ ب .

الظلم والعسف وهزته اريحية الجور والعسف ، ولم يتحتر إلا ترويح أمره الفاسد . فلما رأيت امعانه على ذلك ، خرجت من عنده وفي خاطره أن أمره قد نفذ وتم . وجئت إلى الأمير جكم ، فإنه كان من أعز أصحابي ، وحكيت له ما جرى من الأمر العظيم ، وأشهدته على بآني عزلت نفسي من الوظيفة حتى لا أبأشر الأمور السخيفة . فلما بلغ المذكور الخبر بذلك أخذه الحق على ذلك ، وطلب من يوليه لأهل هذا الشأن ، فلم يجد أحداً يقبل هذا الظالم والخسران غير تقى الدين بن المقریزی الذي كان قد تولى الحسبة في أيام الظاهر من قبل ذلك ، فخلع عليه بذلك في يوم الجمعة ١٧ من الشهر المذكور (١)

غير أن المقریزی لم يستمر طويلاً في وظيفة الحسبة ، ففى ١٠ شعبان من نفس العام صُرف منها ، واستقر فيها جمال الدين الطنبدى بسفارة الأمير سودون من زاده (٢) .

وفي ١٤ شوال من نفس العام أيضاً ، عُزل الطنبدى وأعيد إليها شمس الدين محمد البجاسى ؛ وهو أحد من تولوا هذه الوظيفة من قبل (٣) .

وفي ١٤ ربيع الأول سنة ٨٠٣ استقر العينى في حسبة القاهرة بسفارة الأمير جكم وعُزل منها البجاسى (٤) .

وفي ٧ جمادى الآخرة من نفس العام أُعيد البجاسى إلى وظيفة الحسبة ، وصُرف منها العينى ؛ وكان ذلك بسفارة يلغا السالى (٥) . وحدث هذا بعد عودة الناصر فرج من الشام فاراً أمام تيمورلنك ، وهى الفترة التى شهدت الاستعدادات لملاقاة تيمورلنك . ومن أجل ذلك أُطلقت يد يلغا السالى

(١) عقد الجمان ، ورقة ١٢٩ .

(٢) — السلوك ، ورقة ١٩ ا (بمال وعد به) .

— عقد الجمان ، ورقة ١٣٢ .

(٣) — السلوك ، ورقة ٢٠ ب .

— عقد الجمان ، ورقة ٣٣ ب .

(٤) — السلوك ، ورقة ٢٤ ب .

— عقد الجمان ، ورقة ١٤٢ .

(٥) — السلوك ، ورقة ٢٧ ب .

— عقد الجمان ، ورقة ٤٣ ب .

— انباء القمر ، ورقة ١٧٤ .

الأستادار ، وقد أفاضت المصادر المعاصرة في ذكر ما لجأ إليه يلبغا السالمى من وسائل ومصادرات من أجل جمع المال (١) .

وعلى هذا النحو تستمر المصادر في الحديث عن ولى وظيفة الحسبة ؛ فلم يكذب يعين محتسب حتى يصرف ويستقر مكانه محتسب آخر بسفارة أقوى الأمراء نفوذاً . وهذا ما حدث في ٢٦ شعبان ٨٠٣ ، و ١٨ ربيع الأول ٨٠٤ ، و ١٠ رمضان ٨٠٥ ، ومحرم ٨٠٦ ، و ٦ ربيع الأول ٨٠٦ ، و ٧ ربيع الآخر ٨٠٦ ، وأول جمادى الأولى ٨٠٦ (٢) .

وفي شوال ٨٠٧ يذكر المقرئى أنه أُعيد إلى حسبة القاهرة مكرهاً بعد مراجعة السلطان ثلاث مرات (٣) . غير أن العينى لم يترك هذه الفرصة تمر دون أن يتشقى من خصمه ، فيخبرنا بأنه سرعان ما خلع منها في ٢١ ذى القعدة ، أى بعد أيام من توليته لها (٤) . وليس ثمة شك في أن تولية المقرئى الحسبة على النحو الذى أشار إليه — ونحن لانشك في صدق روايته — ثم مفاجأته بقرار الغزل بعد أيام ، جعلته يزهد في تولى الوظائف العامة ، وكان هذا آخر عهده بها .

ويكفى لإبراز مدى ما آلت إليه وظيفة الحسبة من مهانة في ذلك الوقت أن أحد المحتسبين ، وهو محمد بن شعبان الذى تولى الحسبة في ١٠ رمضان ٨٠٥ ، بلغ حالة من الفساد للدرجة أن والى القاهرة ضربه بحضرة الناس في

(١) انظر :

- السلوك ، ورقة ٢٢ ب ، ٢٧ ب — ٢٨ ب .
 - عقد الجمان ، ورقة ١٤٣ .
 - انباء الغمر ، ورقة ١٧١ ب ، ١٧٣ ب .
 - النجوم الزاهرة ، طبعة كاليفورنيا ، الجزء السادس ، ص ٤٧ ، ٦٩-٧٢
- WIET : L'Egypte arabe, pp. 526-532.

(٢) انظر :

- السلوك ، ورقة ١٢٩ ، ٣٣ ب ، ١٣٨ ، ١٤٠ ، ٤٠ ب .
- عقد الجمان ، ورقة ٥٣ ب .
- انباء الغمر ، ورقة ١٨٩ ب ، ٢٠٥ ب .
- (٣) — السلوك ، ورقة ٤٨ ب .
- (٤) — عقد الجمان ، ورقة ٧٠ ب .

دار الدوا دار الكبير أربعين عصاً لسوء سيرته^(١) . ولا يختلف مَنْ ترجم الحياة هذا المحتسب على سوء سيرته ؛ فيذكرون عنه أنه « كان عرياً من الفضائل ، وأنه ولى الحسبة زيادة على عشرين مرة بالبذل ، بحيث كان يتبجح بذلك ويفتخر به ، مع أن المؤيد ضربه مرة (أخرى) على رجله وألزمه بعدم السعي فيها^(٢) . »

* * *

وشهدت الفترة بين عامي ٨٠٦ — ٨٠٩ أخطر سنوات المجاعة الطويلة المتقطعة التي حلت بمصر منذ سنة ٧٩٦ ؛ فقد صاحب هذه المجاعة انتشار الوباء . في هذه السنوات الثلاث مرت الحسبة بتطور جديد انزلق بها نحو الهاوية ، فأصبح توليها لا يتم إلا عن طريق البذل . ففي حديثه عن سنة ٧٠٩ يقول ابن حجر ، « ووقع في هذه السنة ، والتي بعدها ، والتي قبلها ، من تلاعب الجهالة بمنصب الحسبة ما يُتعجب من سماعه ، حتى أنه في الشهر الواحد ثلاثة ثلاثة أو أربعة . وسبب ذلك أنهم فرضوا على المنصب مالا مقررّاً ، فكان مَنْ قام في نفسه أن يليه يزن المبلغ المذكور ويُخلع عليه . ثم يقوم آخر يزن ويُصرف الذي قبله ، واستقر هذا الأمر في أكثر دولة الملاك الناصر فرج^(٣) . »

فإذا ما انتقلنا إلى سلطنة المؤيد شيخ ، نجد أن الظاهرة لم تتوقف بل نجد أنها أصبحت أمراً مقررّاً طوال بقية عصر المماليك . وتسعنا المراجع — طوال هذه الفترة — بعدد كبير من الأمثلة نذكر بعضها على سبيل المثال .

ففي ٢٨ ذى الحجة سنة ٨١٥ عُرِل صدر الدين أحمد بن العجمي عن الحسبة بابن شعبان ، وقد وعد بخمسمائة دينار ليقوم بها ، كما التزم أن يحمل كل شهر مائة دينار^(٤) . غير أنه لم يستطع الوفاء بما التزم به ؛ ففي محرم من

(١) — السلوك ، ورقة ١٣٨ .

(٢) — النجوم الزاهرة ، طبعة كاليفورنيا ، الجزء السادس ، ص ٢٧٤

— الضوء الالامع ، الجزء السابع ، رقم ٦٧٥

(٣) — انباء الفمر ، ورقة ٢٣٨

(٤) — السلوك ، ورقة ١١٠٨ .

— انباء الفمر ، المخطوطة رقم ١٦٠٢ بال مكتبة الاهلية بباريس ، ورقة

السنة التالية ، اشتد الأمر عليه ، وكان قد تأخر عليه مبلغ ألف دينار ، فباع موجوده وأورد نحو ثلثمائة دينار^(١) .

واستقر الأمر على ذلك أيضاً في سلطنة الأشرف برسباي ، لدرجة أن العيني لم يسلم من ذلك . وكان العيني مقرباً لدى برسباي ، فقد كان يسامره ليلاً ليترجم له باللغة التركية ما كتبه في تاريخه « عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان » ، وليشرح له غوامض الفقه والشرعية . ففى شعبان ٨٢٥ أضيفت إلى العيني — وكان يلي نظر الأحباس — حسبة القاهرة ، عوضاً عن صدر الدين أحمد بن العجمي ، كما أضيف إليه أيضاً النظر في الأحكام الشرعية^(٢) . والجديد في هذه الحالة أنها اقترنت ببذل من جانب العيني لسلفه ابن العجمي ، كنوع من الرضوية له وحتى لا يتطلع إلى الحسبة بعد ذلك . فيذكر ابن حجر أن المحتسب كان يتقاضى دينارين في اليوم من مال الجوالى نظير القيام بمهام وظيفته ، فنزل العيني عن دينار منهما لابن العجمي ، واكتفى هو بالدينار الثاني^(٣) .

ولم تختف هذه الظاهرة طوال الفترة المتبقية من عصر المماليك ؛ إذ نجد المراجع ظلت تشير إلى تولى وظيفة الحسبة عن طريق البذل . ومن أمثلة ذلك ما حدث في شوال ٨٥٢ في سلطنة الظاهر جقمق^(٤) .

ومنها ما حدث في أوائل سلطنة الأشرف اينال . ففى ٦ ذى القعدة ٨٥٧ خُلع على الشيخ على الخراساني المحتسب خلعة الاستمرار . وسبب ذلك أن شخصاً من الأوباش سعى في الحسبة بثلاثة آلاف دينار ، ومال السلطان لتوليته ، فتكلم معه بعض أرباب الدولة باستمرار الشيخ على الخراساني على بذل الفين^(٥) . غير أنه لم يمر على ذلك سوى ثلاثة أسابيع حتى قبض على

(١) — السلوك ، ورقة ١١٠٩ .

— انباء الغمر ، المخطوطة السابقة ، ورقة ٣٩ ب .

(٢) — السلوك ، ورقة ٣٥٢ ا .

— عقد الجمان ، ورقة ١٥٤ ب .

(٣) — انباء الغمر ، ورقة ١٢٠ ب .

(٤) — التبر المسبوك ، ص ٢٢٠ .

(٥) — حوادث الدهور ، ص ١٩٦ .

المحتسب وحُبس عند الخازن دار بسبب مال طلبه السلطان منه . وبعد يومين عُرِّل الشيخ على ، واستقر مكانه آخر ببذل نحو ثلاثة آلاف دينار^(١) .

ويبدو أن الشيخ على الخراساني نجح في أن يعود إلى وظيفة الحسبة ، بعد أن بذل مبلغاً من المال يفوق ما بذله سلفه . ففي ١٥ جمادى الآخرة ٨٥٩ تعود المراجع إلى الحديث عن عزله منها مرةً أخرى ، وتولية أباها عبد العزيز بن محمد الصغير نقيب الجيش ، مضافةً لقبالة الحبش ، بمال بُذِل في ذلك^(٢) .

ولإذا ما رجعنا إلى ترجمة حياة الشيخ على الخراساني لعرفنا منها مدى تهافته على تولى الحسبة ، ومدى ما آل إليه أمرها بما استحدث فيها من مظالم . ففي هذه الكلمات يُترجم له أبو المحاسن ، « في سنة ٨٦١ توفي يار على بن نصر الله العجمي الخراساني الطويل محتسب القاهرة بطالاً . . . فإنه لما ولى حسبة القاهرة سار فيها أقبح سيرة وفتح له أبواب الظلم والأخذ ، فما عفّ ولا كفّ وجدّد في الحسبة مظالم تُذكر به ، وإثمها وإثم من يعمل بها عليه إلى يوم القيامة . وصار يأخذ من هذه المظالم ويخدم الملوك بها ، فانظر إلى حال هذا المسكين الذي ظلم نفسه وظلم الناس . . . »^(٣)

ومنها ما يذكره لنا أبو المحاسن بتاريخ ٦ صفر ٨٦٥ . ففي هذا اليوم استقر على بن اسكندر والياً للقاهرة ، واستقر تم من بخشابش الظاهري الخاصكى ، المعروف برصاص ، في حسبة القاهرة عوضاً عن على بن اسكندر وكلاهما ولى بالبذل . ثم يعلّق على ذلك بقوله ، « أن تم هذا أول تركى ولى الحسبة بالبذل ، ولم نسمع ذلك قبل تاريخه لا قديماً ولا حديثاً^(٤) »

ويعطينا ابن إياس من تتبّع أخبار المحتسبين فيما ورد عنهم في المصادر المعاصرة من إشارات متفرقة ، أو في تراجم حياتهم . فيذكر لنا ما استقر

(١) — حوادث الدهور ، ص ١٩٨

(٢) — حوادث الدهور ، ص ٢٣٠

(٣) — النجوم الزاهرة ، الجزء السابع ، ص ٦١٠ — ٦١١

(٤) — النجوم الزاهرة ، الجزء السابع ، ص ٣٥٢

عليه أمر الحسبة بمناسبة تولية قايتباى عرش السلطنة ، فيقول : « في شهر رجب سنة ٨٧٢ نُودى من قبل السلطان بإبطال المشاهرة التى تتعاق بالمحتسب ، وهى نحواً من ألف دينار في كل شهر . فبطل ذلك مدة يسيرة ، ثم عاد بعد ذلك كل شئ على حاله (١) . »

وأما في عهد الغورى فقد ارتفع المبلغ المقرّر مشاهرةً على من ولى وظيفة الحسبة إلى خمسة عشر ألف درهم (٢) .

وفيما يختص بالاسكندرية نجد أن المبلغ المقرّر على الباعة لجهة الحسبة بها ، في كل شهر ، بلغ في سنة ٨٣٩ ثلاثين ألف درهم . وكان ذلك المبلغ يُحمل إلى ديوان النيابة ؛ وذلك أن حسبة المدينة أُضيفت إلى نائبها منذ أن تولى النيابة بها في نفس هذا العام الأمير غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري صاحب كتاب « زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك » (٣) . وعلى الرغم من أن الأمير غرس الدين قد أمر بإبطال ذلك المقرّر ، ونقّش المرسوم الخاص بذلك في رخامات ثبتها على أبواب البلد (٤) ، فقد ظل الأمر معمولاً به حتى السنوات الأخيرة من عصر المماليك .

ففي سنة ٩٢٢ أصدر السلطان طومان باى ، آخر سلاطين المماليك ، مرسوماً يقضى بإبطال مقرّر الحسبة بثغر الاسكندرية ، وهو — كما جاء في المرسوم — في كل شهر سبعة آلاف وخمسمائة درهم (٥) .

وتناقص المقرّر مشاهرةً من ثلاثين ألف درهم في سنة ٨٣٩ إلى سبعة آلاف وخمسمائة درهم في سنة ٩٢٢ له دلالة الكبرى . فهذا التناقص يفسر

(١) — بدائع الزهور ، طبعة بولاق ، الجزء الثانى ، ص ٩٣

(٢) — بدائع الزهور ، طبعة بولاق ، الجزء الثالث ، ص ١٨

(٣) — المقصد الرفيع ، ورقة ١١٣٢ .

— في سنة ٨٣٩ تولى الأمير غرس الدين خليل بن شاهين وظيفة النائب والحاجب والمشد بالاسكندرية ، ويرجع ذلك الى أنه كان حماً للسلطان برسباى — انظر :

الدكتور زياده : المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر الميلادى ،

ص ٢٤

(٤) — انباء الفمر ، ورقة ٢١٢ ب .

(٥) — انظر المراسيم المرفقة بهذا البحث ، المرسوم رقم ١

ما آلت إليه الحالة الاقتصادية بثمر الاسكندرية في الفترة الأخيرة من عصر المماليك ، وخاصةً تلك التي أعقبت تحول تجارة البهار وغيرها من سلع الشرق الأقصى من أسواق مصر والشام إلى أسواق لشبونة بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح . فال مؤرخ ابن إياس يصف لنا الحالة بالمدينة بمناسبة زيارة السلطان الغوري لها في سنة ٩٢٠ بقوله ، « لم يكن بثمر الاسكندرية يومئذ أحدٌ من أعيان التجار ، لا من المسلمين ولا من الفرنج ، وكانت المدينة في غاية الخراب بسبب ظلم النائب وجور القباّض ، فإنهم صاروا يأخذون من التجار العُشر عشرة أمثال فامتنع تجار الفرنج والمغاربة من الدخول إلى الثغر ، فتلاشى أمر المدينة وآل أمرها إلى الخراب (١) »

* * *

وأما الظاهرة الثالثة التي أدت إلى انحلال أمر الحسبة وانهارها فهي تولى أمراء المماليك لهذه الوظيفة الدينية .

ففي شهر ربيع الآخر سنة ٨١٦ ولى الحسبة الأمير منكلي بغا الحاجب ، الملقّب بالفقيه ، مضافاً إلى الحجوبية (٢) . وربما كان لهذا اللقب صفة من الحقيقة ؛ الأمر الذي دعا المؤيد شيخ إلى الخروج عن التقليد المتبع حتى ذلك العام وهو أن يتولى الحسبة أحد الفقهاء المتعممين .

غير أن هذا الأمير لم يستمر في الجمع بين الوظيفتين سوى ثلاث سنوات ، ففي المحرم سنة ٨١٩ صُرف عن الحسبة وأعيد العيني إليها (٣) . وكانت البلاد قد حل بها الوباء في العام الماضي واستمر حتى هذا العام (٨١٨ - ٨١٩) ، وأدى هذا الوباء - فضلاً عن كثرة الموتى - إلى ارتفاع الأسعار والغلاء الشديد . وربما يكون هذا الأمير قد فشل في أداء مهام وظيفته في هذه الظروف غير العادية .

(١) - بدائع الزهور ، طبعة استانبول ، الجزء الرابع ، ص ٤٢٣ - ٤٢٤

(٢) - صبح الأعشى ، جزء ١١ ، ص ٢١٠

- أنباء الغمر ، ورقة ٤٠ ب .

(٣) - السلوك ، المخطوطة رقم ١٧٢٧ بالمكتبة الأهلية ببائيس ،

ورقة ٢٩٨ .

- أنباء الغمر ، ورقة ١٦٢ .

- عقد الجمان ، ورقة ١١٥ .

وفي عهد برسبای تولى أرباب السيوف هذه الوظيفة مرتين . ففى المرة الأولى صُرف العيني عن الحسبة وعلى كره منه ، بل على كره من السلطان أيضاً ؛ وذلك أن الأمر اقتضى تعيين أحد الأمراء بدلاً منه . فقد تجمهرت العامة حول العيني بسبب قلة الخبز في الأسواق يوم ٧ ذى الحجة سنة ٨٢٨ وصاحت عليه ، فبادر بالصعود إلى القلعة وهو خائف من رجم العامة له وشكاهم للسلطان ، وكان يختص به . فحقق السلطان على العامة وأمر بالقبض على عدد منهم . ولم يكتف بذلك ، إنما أمر بقطع أناملهم وآذانهم وسجنهم ليلة بالقلعة ، ثم أفرج عنهم في اليوم التالى ؛ وكان عددهم ٢٢ رجلاً (١) .

ويبدو أن هذا الإجراء العنيف من جانب السلطان لم يؤدى إلى زجر العامة ، ولذلك فإنه في يوم ٥ محرم من السنة التالية خلع على الأمير إينال الششماني ، أحد أمراء العشرات ، في حسبة القاهرة عوضاً عن العيني (٢) .

ولكن السلطان لم يتخذ أى إجراء لتوفير الغلال ، كما أن الأمراء من جانبهم استغلوا الفرصة وخاصةً بعد أن بلغهم شدة الغلاء ببلاد الصعيد ، وأنها لا يكاد يوجد بها قمح ولا خبز . فرفض الأمراء فتح شونهم لبيع الغلال لكي يرتفع السعر ، كما أن السلطان منع أن يُباع من حواصله قمح طمعاً في زيادة السعر ، أو كما قال المقرئى ، « أمسك خزّان القمح ما عندهم منه ، وأملوا أن يبيعوا البرّ بالدُرّ (٣) » .

وكان ذلك بؤادر أزمة حادة من تلك الأزمات التى تعودتها مصر نتيجة انخفاض فيضان النيل وما يترتب عليه من جذب ومجاعة ووباء . ففى سنة

(١) — السلوك ، ورقة ١٣٦٩ .

— انباء الفمر ، ورقة ١٤٤ ب .

— كانت هذه هى الحادثة الثالثة التى تجمهر فيها الشعب وعبر عن احتجاجه بسبب قلة الخبز في الأسواق . وقد ساق المقرئى في كتابه « اغاثة الامة » حادثتين مماثلتين ، أولهما في سنة ٣٣٨ فى عهد الدولة الأخشيدية ، وثانيهما أثناء الفلاء الشديد فى خلافة المستنصر بالله الفاطمى —

انظر اغاثة الامة ، ص . و . (المقدمة) ص ١١ ، ٢٥ — ٢٦

(٢) — النجوم الزاهرة ، طبعة كاليفورنيا ، الجزء السادس ، ص ٥٩٥

WIET : Les biographies du Manhal Safi, Le Caire 1932, No. 616.

(٣) — السلوك ، ورقة ٣٧١ ب .

٨٣٠ جاء الفيضان منخفضاً الأمر الذى أدى إلى حدوث القحط والجذب والغلاء . وبعد ذلك بستين (سنة ٨٣٢) تكررت نفس الظاهرة بنتائجها المعروفة ؛ غير أنه زيد عليها انتشار الوباء في السنة التالية (٨٣٣) (١) .

ولننظر ما فعل هذا الأمير في هذه الظروف ؛ ظروف المجاعة والوباء الذى يحصد المئات من أفراد الشعب كل يوم . إنه لم يفعل شيئاً سوى المحافظة على مصالح سيده وسلطانة . فقد منع كل من ورد بغلّة إلى ساحل مصر وبولاق من بيعها وتشدد في ذلك فامتنعوا ، ثم أخذ في بيع الغلال السلطانية كل أردب منها بثلاثمائة وستين درهماً . وبعد أن انتهى من ذلك أذن لهم في بيع غلالهم ، وكان الطحانون قد تكفّوا بغلال السلطان ، ولذلك انحطّ سعر الغلال (٢) .

وما أن انحسر الوباء وعادت الأحوال الطبيعية إلى البلاد حتى بادر السلطان بإعادة العيى إلى الحسبة مضافاً لما بيده من نظر الأحياس (٣) .

وفي ظروف مماثلة لجأ برسباى ، للمرة الثانية ، إلى تعيين أحد الأمراء في هذه الوظيفة . وكان ذلك في سنة ٨٤١ عندما تعرضت البلاد ، للمرة الثانية في عهده ، للوباء . ففى رمضان من ذلك العام خلع السلطان على الأمير دولات خجا بن عبد الله الظاهرى وولاه الحسبة عوضاً عن أحد المتعممين . وكان دولات خجا قد عُرِف بقسوته وشدته أثناء توليه وظيفة والى القاهرة . إذ يروى عنه أنه أطلق عدة من المحابيس أرباب الجرائم ، وهدّد من أمسكه منهم ثانياً بالتوسيط ، فوسّط جماعة منهم عندما ظفر بهم . غير أنه لما كثر ظلمه عزله السلطان من ولاية القاهرة . ولما حل الوباء بالبلاد في هذه السنة ، رأى السلطان أنه في حاجة إليه ، فخلع عليه في وظيفة الحسبة . إلا أن أيامه فيها لم تطل ، إذ أنه لم يكن يجشى الله ، فأخذ الموت بالطاعون في أول ذى القعدة من نفس العام (٤) .

(١) انظر القائمة السابقة .

(٢) السلوك ، ورقة ١٣٩٦ .

(٣) المرجع السابق ، والورقة المشار إليها سابقا .

(٤) — النجوم الزاهرة ، طبعة كاليفورنيا ، الجزء السادس ، ص ٧٦١

— الضوء اللامع ، الجزء الثالث ، رقم ٨٣٠

ويبدو أن هذا الإستثناء الذى لحأ إليه المؤيد وبرسباى في ظروف غير عادية ما لبث أن أخذ يزداد شيئا فشيئا حتى أصبح هو القاعدة . وفي ذلك يقول الخالدى ، « وكانت ولاية الحسبة منحصرة في المتعممين ، ثم صار يتولاها أرباب السيوف غالبا^(١) »

فابتداءً من سنة ٨٦٥ لم يعد يعين في هذه الوظيفة إلا أحد الأمراء . وانطبق على الأمراء ما كان ينطبق على المتعممين ، ممن كانوا يتولون هذه الوظيفة من قبل ؛ أى أنهم لم يكونوا يتولونها إلا بالبدل . ففى هذه السنة تولى وظيفة الحسبة الأمير تميم بن نجاشي الظاهري ، وهو أول تركى تولى الحسبة بالبدل^(٢) . وما استقر عليه الأمر أخيراً بالنسبة لوظيفة الحسبة لا يعدو أن يكون مظهراً من مظاهر الصراع الطبقي الذى شهدته مصر المملوكية . فالماليك في تكاليفهم على جمع المال ، قد درجوا على منافسة العلماء ورجال الدين في تولى الوظائف الدينية ، وخاصة تلك التى تمكنهم من الثراء ، مثل وظيفة الحسبة ، ووظيفة ناظر الوقف . ولولا ما هم عليه من جهل بالشريعة لنافسواهم في تولى وظيفة القضاء^(٣) . وقد عبّر السبكى ، عن هذه الحالة ، بقوله ، « من قبائح الأمراء استكثارهم الأرزاق وإن قلت على العلماء ، واستقلالهم الأرزاق وإن كثرت على أنفسهم . ورأيت كثيراً منهم يعيرون على الفقهاء ركوب الخيل ولبس الثياب الفاخرة . ولو اعتبر واحد منهم رزق أكبر فقيه لوجده دون رزق أقل مملوك عنده . أفما يستحق هذا الأمير المسكين من الله^(٤) » .

(١) — المقصد الرفيع ، ورقة ١٣٢ .

— هذه الملاحظة التى أبداها الخالدى عن وظيفة الحسبة ، تجعلنا نشك في أنه ألف كتابه في منتصف عهد برسباى تقريباً ، أو بعد سنة ١٤٣٢ ، كما يرجح الدكتور زياده (المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر الميلادى ، ص ٢٤ - ٢٥) . إذ أنه حتى عهد برسباى لم تكن الحسبة يتولاها أرباب السيوف غالبا .

(٢) — النجوم الزاهرة ، نفس الطبعة ، الجزء السابع ، ص ٣٥٢ ، ٧٨٨ (كان هذا الأمير قد سبق له أن تولى وظيفة الحسبة في أوائل سلطنة الظاهر جقمق ، ولكن ليس عن طريق البدل) .

(٣) DARRAG : L'acte de Waqf de Barsbay, éd. Inst. Fr. Arch. Or. du Caire, Le Caire 1963, p. 20 et suiv.

(٤) — معيد النعم ومبيد النقم ، طبعة Myhrman ، لندن ١٩٠٨ ، ص ٦٨ - ٦٩

وفي الفترة الأخيرة من عصر المماليك دخل الصراع الطبقي بين المماليك والفقهاء مرحلة نهائية ؛ كان الانتصار فيها لطبقة المماليك . وهذا ما نلمسه فيما تذكره المصادر المعاصرة من إشارات تبرز ذلك الصراع . ففي سنة ٨٥٤ قام المماليك الجلبان بمنع المتعممين من ركوب الخيل وركوب البغال والحمير ، ما عدا كاتب السر ونائبه ، وناظر الجيش وناظر الخاص ، وناظر الأسطول ، والوزير ، والاستادار ، وكاتب المماليك^(١) .

وفي سنة ٨٥٧ كثر إلحاح المماليك على السلطان في طلب اقطاعات الفقهاء والمتعممين^(٢) .

وفي السنة التالية ثار المماليك على الفقهاء والمتعممين فضربوا منهم خلائق وأخذوا خيولهم . وبذلك أشاعوا جواً من الإرهاب ضدهم ، فلم يبق بالقاهرة متعمم إلا وتحاشى ركوب الخيل^(٣) . وما حدث في هذه السنة تكرر حدوثه في سنة ٨٦٠^(٤) .

وكانت هذه الظاهرة موضع ملاحظة الرحالة الأجانب ؛ ومن هؤلاء الذين سجلوا ما رأوه — في هذا الصدد — الرحالة الألماني فيلكس فابر Felix Faber أثناء إقامته بالقاهرة في سنة ١٤٨٣^(٥) .

* * *

وكانت وظيفة الحسبة في بلاد الشام من الوظائف الدينية الرئيسية . وكان تعيين المحتسب في النيابات الكبرى ، كنيابة دمشق ، ونيابة حلب من قبل السلطان ، وفي النيابات الصغرى من قبل النواب^(٦) .

(١) — النجوم الزاهرة ، الجزء السابع ، ص ١٩٨

— حوادث الدهور ، ص ٦٨

— التبر المسبوك ، ص ٣١٤

(٢) — حوادث الدهور ، ص ١٦٧

(٣) — حوادث الدهور ، ص ٢٠٥

(٤) — حوادث الدهور ، ص ٢٧٨

(٥) THENAUD : Le voyage d'outre-mer ; éd. Schefer, Paris 1884, Introduction, p. XXXIV.

(٦) — صبح الأعشى ، جزء ٩ ص ٢٥٥ — ٢٥٦ ، جزء ١٢ ص ٧

— المقصد الرفيع ، ورقة ١٤٥ أ .

ومرت وظيفة الحسبة في نيابات الشام بنفس الأدوار التي مرت بها هذه الوظيفة في مصر منذ بداية القرن التاسع ، وانتهت هناك إلى ما انتهت إليه في مصر من فساد أمرها نهائياً . فقد أصبح لا يتولاها أحدٌ إلا عن طريق البذل ، والإلزام بدفع مقرر شهرى أثناء مدة ولايته لها ، كما أصبحت ولايتها قاصرة على أرباب السيوف (١) .

وإذا كانت المصادر المعاصرة لا نجد فيها عن أحوال بلاد الشام إلا الشيء اليسير ، الذى لا يساعدنا على تتبع دراسة الحسبة في بلاد الشام كما فعلنا بالنسبة لمصر ؛ فإن بلاد الشام قد حفظت لنا — نظراً لطبيعتها الجبلية — الكثير من المراسيم المملوكية التي تتعلق بمختلف أنواع النشاط البشرى (٢) . ومن هذه المراسيم استطعنا أن نستخرج عدداً لا بأس به يوضح لنا ما آلت إليه وظيفة الحسبة في نيابات الشام . بل إن هذه المراسيم توضح أكثر من جميع النصوص التاريخية التي سقناها فيما يخص بمصر مدى ما وصلت إليه الحسبة من فساد ، والدور الذى لعبته — بعد أن فسد أمرها — في هدم الحياة الاقتصادية في بلاد الشام .

وسيجد القارئ في نهاية هذا البحث مجموعة من المراسيم الخاصة بالحسبة ، أستخرجت نصوصها من المصادر الأصلية التي نشرت بها ، ومن هذه المراسيم مرسوم واحد خاص بالاسكندرية (سنة ٩٢٢) ، ومرسوم واحد

(١) المقصد الرفيع ، ورقة ١١٤٥ .

— يذكر الخالدى في حديثه عن أرباب الوظائف الدينية بنبابة دمشق ، ومن بينها المحتسب ، أنه صار يتولاها في زمانه جماعة من أرباب السيوف ، وولايته من الأبواب الشريفة .

(٢) عن مجموعة المراسيم المملوكية بالشام انظر :

WIET : Repertoire des decrets mamlouks de Syrie, dans Mélanges René Dussaud, T. I, Paris 1939.

: Décrets de date indéterminée, dans Mélanges René Dussaud, II, Paris 1939.

JANINE SOURDEL - THOMINE : Inscriptions Arabes de KARAK NUH, BEO, T. XIII, Damas 1951.

: Deux decrets mamlouks de MARQAB, BEO, XIV, Damas 1954.

— الظاهرة العامة التي نخرج بها من دراسة هذه المجموعة الكبيرة من المراسيم هي أن تاريخ إصدارها يرجع — في معظم الأحيان — إلى بداية ونهاية عهود معظم سلاطين المماليك استجلاباً لرضاء الله والناس . كما أنها تنتهى بصيغة تقليدية عامة ، وهي تقرير إبطال هذه المظلمة أو تلك إبطالا مستمرا على الدوام باقيا على مر الدهور والأيام ، وتنزل لعنة الله والناس أجمعين على كل من يجددها أو يسعى في تجديدها .

خاص ببيروت (سنة ٨٠٦ أو سنة ٨٦٠) ، ومرسومان خاصان ببيعلبك (سنة ٨٢٤ ، وسنة ٨٤٠) ، وأربعة مراسيم خاصة بدمشق (سنة ٨٠٢ أو سنة ٨٠٣ ، ٨٦٣ ، ٨٦٤ ، ٨٦٨) ومرسوم واحد خاص بطرابلس (سنة ٨٢١) . وهذه المراسيم تقرر إبطال المشاهرة ، أو حق الشهر الذي كان يجبي لصالح المحتسب من بعض التجار وأصحاب الحرف والصنائع كالحبّازين ، والطحّانين ، وأرباب المعاش ، والصنّاعية ، والدبّاغين ، والمغسلين والحمالين لأموات المسلمين ، وعلى سكان وقف الجوامع والتجار والمتسبّبه ، وعلى الأسواق عامة^(١) . وما من شك أن ماورد في هذه المراسيم ، وإن كان لا يشمل جميع التجار وأصحاب الحرف والصنائع ، إلا أنه يعطينا صورة كافية عما آل إليه أمر الحسبة ، وكيف أنها أصبحت قيّداً كبيراً على النشاط التجارى والصناعى .

ولإذا ما أضفنا إلى هذه الصورة العامة التى خرجنا بها من دراسة الحسبة أنه كان لكل محتسب أعوان أو نواب^(٢) يعاونونه أو ينوبون عنه في أداء مهام وظيفته التى تشمل القطر كله أحياناً (كما هو الحال في مصر) ، والنيابة كلها (كما هو الحال في الشام) ، لأدركنا مدى الضرر الذى نجم عن فساد أمرها على هذا النحو ، ومدى نتائج ذلك على الحياة الاقتصادية بالبلاد .

ولإذا كان هذا هو حال المحتسب ونوابه ، فمن المؤكد أن الفساد قد امتد إلى كل من له صلة بالإشراف على الأسواق وعلى أصحاب الحرف والصنائع . ومن هؤلاء « شادّ الأسواق »^(٣) و « ناظر الأسواق »^(٤) و « معلّم الأسواق »^(٥) و « الدّلائين وكبير الدّلائين »^(٦) و « العريف »^(٧)

(١) انظر مجموعة المراسيم المرفقة بهذا البحث .

(٢) يعرف هؤلاء الأعوان في بلاد الشام باسم « نظّار الحسبة » - انظر مرسوم بعلبك المؤرخ في سنة ٨٤٠ هـ - المرسوم رقم ٨

(٣) زبدة كشف الممالك ، طبعة راقيس ، ص ١١٥

(٤) GAUDEFRY-DEMOMMYNES : La Syrie à l'époque des Mamlouks, Paris 1923, p. LXXIII, n. 5.

(٥) ورد هذا المصطلح في ترجمة حياة الأمير قائم المؤيدى (انظر المنهل الصافى ، المخطوطة رقم ٢٠٧٢ بالكتبة الأهلية ببائيس ، ورقة ٣ ب - ١٤) .
(٦) ورد هذا المصطلح في ترجمة الأمير خير الذهبى (انظر الضوء اللامع ، الجزء الثالث ، رقم ٧٨٨) .

(٧) اغائة الأمة ، ص ١٨ (وكان في كل سوق من أسواق مصر على أرباب كل صنعة من الصنائع عريف يتولى أمرهم) .

مراسيم الحسبة

(١)

الاسكندرية^(١)

- (١) يرز المرسوم من المقام الش[ر]؛ [ف]
- (٢) السلطان المالك الملك [الأشرف]
- (٣) ابو النصر طومان باى سلطان
- (٤) الاسلام والمسلمين قاتل الكفرة
- (٥) والمشركين محبي العدل في
- (٦) العالمين عز نصره ان يبطل
- (٧) ما على مقرر الحسبة بثغر الاسكندرية
- (٨) المحروسة ما هو في كل شهر
- (٩) سبعة آلاف وخمسمائة درهم
- (١٠) بتا [ريخ] سنة اثنين وعشرين وتسعمائة

(٢)

دمشق (الجامع الأموي)^(١)

- (١) بسمله : رُسم بالأمر العاليّ
- (٢) المولوى الأميرى الكبيرى المالكى المخدمى
- (٣) السيفىّ سودون الدوادر نائب السلطنة الشريفة
- (٤) بالشام المحروس أعزّ الله أنصاره
- (٥) أن يُنقش بإبطال ما كان على المغسلين
- (٦) والحمالين لأمو[ا]ت المسلمين لنائب الحسبة الشريفة .
- (٧) من الجهة المذكورة حسب المرسوم الشريف
- (٨) السلطانيّ الملكى الظاهريّ تغمده
- (٩-١١) [الله برحمته ورضوانه ومن سعى بإعادتها أو أعان عليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين وسطرت هذه الحسنة في صحائف مولانا السلطان خلّد الله ملكه وجعل الأرض ملكه وآله ؟؟؟]

(١) Sauvaget : Decrets Mamelouks de Syrie, BEO, T. XII, no. 37, pp. 5-6, 7.

— يرجع سوفاجيه أن هذا المرسوم صدر في سنة ٨٠٢ أو في سنة ٨٠٣ هـ

(٣)

دمشق (الجامع الأموي)^(١)

- (١) بسم الله الرحمن الرحيم
- (٢) لما كان بتاريخ نهار الجمعة المبارك ثامن عشرين
- (٣) شهر ربيع الأول سنة ثلاث وستين وثمان مائة برز المرسوم
- (٤) الكريم العالى المولوى الكافى السيفى قانباى
- (٥) الحمزاوى الاشرفى كافل المملكة الشريفة
- (٦) الشامية أعزّ الله انصاره بابطال المقرّر للحسبة
- (٧) على الاسواق والطواحين وغيرها بدمشق
- (٨) من التجار والوصائفية والصنائعية والمتسببة وغيرهم
- (٩) وأن لا يؤخذ منهم درهم الفرد لامشاهرة
- (١٠) ولا قدوم وملعون من يجدده
- (١١) او يسعا في تجديده وعليه لعنة الله والملائكة
- (١٢) والناس اجمعين والحمد لله وصلى على سيدنا محمد وآله وصحبه
وسلم

(٤)

دمشق (الجامع الأموى)^(١)

- (١) بسملة . لما كان بتاريخ نهار [١] لجمعة عشرين
(٢) ربيع الآخرة سنة اربع وستين وثمانمائة رسم المقر الكريم
(٣) العالى المولوى السيفى جانم الأشرفى كافل المملكة الشريفة
الشامية
(٤) أعز الله انصاره بإبطال هذه المظلمة المعروفة بمشاهر [ة] الحسبة
ومشاهرة
(٥) الدباغة التى يرسم البشمقدارية^(٢) عن المسلمين وأهل الذمة
القاطنين
(٦) بدمشق المحروسة وضواحيها وأرباب المعاش والحرصاى
(هكذا) وأن
(٧) لا . . . شئ وذلك ما قيمته درهم فرد حسب ما رسم واستمرار
ذلك
(٨) على ممر الليالى والأيام رغبة فيما قاله الصادق المصدّق
(٩) عليه أفضل الصلاة والسلام من سنّ سنة حسنة فله أجرها وأجر
من

(١) Sauvaget : *Decrets Mamelouks de Syrie*, BEO, T. II, no. 12, pp. 41-42.

(٢) البشمقدارية أو البشمقدارية ومعناها المالك من خاصة السلطان المكلفين بحمل حدائه اذا ماخلعه وحفظ أحدىته . وكان يوجد من بين اصحاب الوظائف أربعة من الخاصكية مكلفين بهذه المهمة . وهذا المصطلح مشتق من الكلمة التركية « بشمق » ومعناها : صندل ، والكلمة الفارسية « دار » . انظر :

Dozy : *Supplément aux dictionnaires arabes*, I, p. 51.

خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ، ص ١١٦

(١٠) عمل بها إلى يوم القيامة ومن سنَّ سنة سيئة فعليه وزرها ووزر
[من]

(١١) عمل بها إلى يوم القيامة فليمتثل ما رُسم به كل من يتولا الحسبة
والبشمقدارية

(١٢) ومن خالف ذلك أو أعاده فعليه لعنة الله والملائكة والناس
أجمعين

(١٣) وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلّم تسليماً

(٥)

دمشق (الجامع الأموي)^(١)

- (١) بسمله . بتاريخ شهر شعبان المكرّم سنة ثمان وستين وثمانمائة
برزت
- (٢) المراسيم السلطانية الملكية الظاهرية أبو سعيد خشقدم أعزّ الله سلطانه
- (٣) ونصره الى مولانا ملك الأمراء كافل المملكة الشامية المحروسة والأمير
- (٤) حاجب الحجاب بها و[ال] سادة القضاة والأمراء أعز الله بهم
الدين بأن يتقدموا
- (٥) بازالت (هكذا) المنكرات وإبطال المحرمات والقاذورات
ومحو آثارها وإبطال
- (٦) الخماير واراقت (هكذا) الخمر وإخراج بنات الخطأ من
دمشق الحصينة وإبطال
- (٧) ما على الحسبة الشريفة من المال المقرر الذي يُسمّا (هكذا)
مشاهرة وما [أ] حدث على البضائع المجلوبة
- (٨) إلى دمشق من التحجير والكلف وتمكين أرباب البضائع من بيع
بضائعهم اين شاءوا
- (٩) واستمرار إبطال المكوس وفروعها التي أبطلت في الايام
الظاهرة
- (١٠) جقمق طيب الله ثراه بأجمعها ومنع مقدم المكارية واتباعه من
- (١١) التعرض إلى أبّان^(٢) فلاحى القرا (هكذا) والمزارع المجاورة
بدمشق المحروسة وتطهير دمشق من سائر

(١) Sauvaget : Decrets Mamelouks de Syrie, BEO, T. XII, no. 42, pp. 18, 23.

(٢) — أى قباني .

- (١٢) المنكرات والمحرمات و(هكذا) ابتغا (هكذا) أجر هذا النداء
بذلك (هكذا) في كل وقت ونقش ما
- (١٣) رَسَم به من ذلك في رخامة بباب الأمير حاجب الحجاب وتُحْمَل
بيريديه إلى الجسا
- (١٤) مع الأموى وتلصق على دعامة من دعائمه ليُعَدَّى بالعمل به
(عن) سائر مكوس
- (١٥) الاسلام وتكون هذه الحسنة جارية في [أل] صحائف الشريفة
على الدوام فقول [ب] ل ذلك
- (١٦) والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلّم

(٦)

بيروت (الجامع الكبير)^(١)

(١) بتاريخ سنة ستة (أوستين) وثمان مائة رسم الجناح العالى "الجمالى"
أمير كوتائب السلطنة الشريفة ببيروت المحروسة

(٢) أعزّ الله تعالى أنصاره بإبطال ما كان استحدث على الخبّازين
ببيروت لنائب الحسبة الشريفة وهو في كل شهر على كل فرن
خمسة دراهم وكان الخبا [زون]

(٣) [طلبوا منه] إبطال ذلك وأن لا يؤخذ ... ولا ...
... ولا يجدّ مظلمة وملعون بن ملعون من يعود [ها] [أو]
يجدد ...

(٤) أو يأخذ منهم شيئاً ولا يأخذ المحتسب إلا جامكيته لا غير ومن
يأخذ شيئاً غير جامكيته تكون عليه لعنة الله واجبة الا (هكذا)
[يوم الدين] .

(٧)

بعلبك (الجامع الكبير)^(١)

(١) لما كان بتاريخ شهر جمادى الآخر من سنة أربع وعشرين
وثمانمائة حضر سيدنا الشيخ الصالح الزاهد العابد سعد (؟)
الله حسن بن

(٢) شمس الدين محمد الملوكي (هكذا) بن أبو الحجاج الأقصري
المصري [ى] المعروف بشيخ السحيمية ناظر الحسبة الشريفة
وعلى يده مرسوم

(٣) بإبطال حق الشهر الذى جدّد على الطحّانين والخبّازين والسوقة
وغيرهم وألا يجدّد عليهم مظلمة وملعون ابن ملعون

(٤) من يجدّد عليهم مظلمة وذلك في أيام النائب خش قدم المظفرى

(٨)

بعلبك (الجامع الكبير)^(١)

(١) الحمد لله ورد وقبّل بالحمد مرسوم شريف إلى دمشق المحروسة يتضمن بابطال ما كانوا يتسادّونه نظار

(٢) الحسبة الشريفة بالشام واعمالها من السوقة وارباب المعاش من معلوم وغيره وأشهر وقوبل المرسوم

(٣) الشريف المشار اليه شرفه الله تعّ بالامثال ثم ورد مرسوم مولانا ملك الأمراء أعزّ الله انصاره

(٤) الى بعلبك يتضمن ما ورد المرسوم الشريف المشار اليه بابطال جميع ما كان يتسادّونه

(٥) نظار الحسبة الشريفة من حق الشهر وقطع المصانعات^(٢) عن بيان الظنون لما جاءت به المراسيم الشريفة

(٦) وذلك بتاريخ شهر ربيع الاول سنة اربعين وثمان مائة

Sobernheim : Baalbek in Islamischen Zeit, no. 31.

(١)

(٢) يتردد ذكر مصطلح « قطع المصانعة » في المراسيم المملوكية الخاصة بالشام ، ومعناه جباية اتاوة مالية نظير السماح بالقيام بعمل معين من الأعمال التي من المفروض أن يقوم بها أحد من أصحاب الحرف والصنائع — انظر :

Sauvaget : Decrets Mamelouks de Syrie, BEO, T. XII, no. 39, pp. 4-5, 8 et note.

(٩)

طرابلس (مدرسة السلطان المؤيد شيخ)^(١)

(١) لما كانت بتاريخ العشر الأول من ربيع الأول سنة احد وعشرين

[و] ثمان مائة ورد المرسوم الشريف السلطان الملك المؤيد أبو

(هكذا) النصر شيخ بأن لا يؤخذ من سكان وقف جامع

(٢) العطار للمحتسبين من قدوم ولا شهر ولا اذا مكروه استجلاب

أدعية المصلين ومن عمل به له أجره ومن خالف عليه غضب الله

ولعنة الملائكة والناس أجمعين آمين .

